الثقافة والساميون

« للعصور مهمتان رئيسيتان : الاولى : تحرير الفكر ؛ والثانية : العمل على خلق صورة جديدة من الحضارة الشرقية الصحيحة ؛ تخرج من روح الامم الشرقية مجتمعة ، فالجمع بين مناحي الثقافة المتنافرة فى انحاء العالم العربى ، ونشر مختلف الاراء والتعبير عن متباين المنازع التى تقوم فى عقلية الشعوب الشرقية ، من الاشياء الجوهرية التى تعنى بها العصور فى أول ما تعنى به من الخدمات الادبية . واليوم نقدم لقراء هذا الفصل الذى أرسل إلينا به أديب مراكشى معروف . وبهذه المناسبة نغتبط هيئة تحرير العصور بأن تعلن بأنها ترحب بكل الابحاث والمنتجات الادبية التي يتفضل بها الادباء فى أنحاء العالم العربى »

لمحة

لا يعزب عنك أن المسائل المشكلة المتداولة بين أبناء جيلنا الحاضر فى فلسفة الاجتماع والتاريخ والسياسة تتلخص فى الكلمتين المشهورتين ، أى والشرق والغرب، وعندى أن محورها ما تمكن تسميته بالمسألة السامية . ألا ترى أن برجسن (Bergson) وإينشطين (Einstein) وفرود (Freud) وكورى (Curie) وهرتز (Hertz) وماركس (Marx) ، وهم ساميو أوربا ، هم الذين نسجوا الهيئة حياتنا حتى الفضفاضة، وألقوا بها فى زعازع الحرقة والقلق ، حاملين ألوية جلائل التصورات للسعادة الانسانية ، نعم إن الأمة السامية لفى دورها العائد نوراً واستيقاظاً . أنظر الى بيت المقدس فهو نيرها العتيق . وانكفىء إلى الأندلس نيرها الأكبر ، تلك الروضة الغناء ، تلك الغزالة العجماء ، غرناطة العرب ، التى ملؤها الوفاء ، وشعارها الاخلاص ، إذ أرواحهم الكريمة تنم عنها حتى أيامنا هذه ، مع نفحات الذكر الخالد ، والمجد العائد . . . . فهى خليقة بأن تكون أيضاً مقر الأنبياء !

واليوم فلنضع — نحن الأندلسيين — ما بين شتى القوى الفكرية المأنوسة لدي المتنورين ، « إمبراطوريتنا » الأندلسية مارحة بين ضرب من التصوف ونوع من

الهزل الرقيق كي تمثل هكذا (السامية) التي تقيم للحياة وزن العظمة والاجلال ، متدرعة بالتقوى ومباينة لمذهب ألوهية الكائنات . فالسامي لا متيامن ولا متشائم ، بل تائق إلى قضاء ساعاته في الهدوء والطمأنينة ، فهو محب طاهر ، يحب الله تعالى ، والنوع البشري بعيداً عن الغيرة الحيوانية .

وهذا الكتاب ، فذلكة موجزة مقدمة لأعمال تأتي متتالية ، إنما هو كقانون تمهيدي لدرس مسألة جديدة ، طريفة تعالج أولا استخراج أسرار الوئام الكامن بين روح الأفكار الخالية وروح (السامية) الخالدة ، التي طالما تألفت بنوع خاص في الأندلس مع الفيلسوف الاسلامي ابن رشد ، والمفكر الكبير الاسرائيلي القرطبي موسى بن ميمون (Maimonides) ، وسينكا (Senique) ، وابن حزم ، وابن العربي ، وأخيراً باخطاء وخفوت مع المفكر الأندلسي كانفاط (Ganivet)(١) بافتخاره أنه سليل العرب . وثانياً تحاول توحيداً أدبياً بين شبيبة إيبريا الجنوبية وأختها الناشئة السامية الناهضة اليوم من طنجة إلى فلسطين ، ومن لبنان الكاثوليكي إلى مكة الاسلامية .

ولو سمحت لي بتحكيم مخيلتي لقلت : إن الذي ضم بين دفتي الكتاب : أشبه باصلاح عود قبل العزف والاتيان بالنغمة المطربة ، أو كشبوب نار القرى بين إخوان في أم القرى . أو مثلا كجواب من إفريقيا الشجاعة إلى رو دريق التقي .... نعم إن منهاج الحق لواضح حيث استوت الأندلس قائمة بلسان التوسط والموبقة إزاء اضطراب العالم . أعني انحطاط شعوب أوربا البالية والتهديد المريع الآتي من آسيا الصفراء ... ليستمد المسلمون والاسرائيليون والكاثوليك الساميون ، ضد اللادينية والهيولية ونفاق المجددين العصريين . إذ الروح السامية ، ابنة التوراة هي المنقذة الفذة للانسانية !

---

(١) أنخيل كانفاط (Angel Ganivet) كاتب غرناطي مبرز وسياسي حاذق . ولد سنة ١٨٦٧ م . في غرناطة وكانت له شخصية عجيبة واهتمام عظيم بأصله وأجداده الاندلسيين حتى أفضى به إلى إنكار جنسيته الاسبانية قائلا إنه عربي وأن الاندلسيين عرب أكثر منهم أسبان عاش في نكد دائم ورسائله مشهورة من هذا القبيل ، نفس حساسة متأثرة عظيمة ، انتحر وهو ابن ثلاثة وعشرين سنة .

الفصل الاول

1 — ظهور العالم الجنوبى — ما هو الشرق ؟ ما هو الغرب ؟ سؤالان ذوا خطورة مروعة وغموض كابتسام أبى الهول هائل ! تدور حولها وحدانية وعقلية العالم أجمع : سبنغلر (Spengler) ، كيزرلنغ (Keyserling) ، والس (Wells) ، فريرو (Ferrero) ، ميترلنك (Maeterlink) . رومان رولان (Romain Roll-and) سوكلوف (Sokolov) ، جابطنسكى (Jabotinsky) ، ويزمان (Weizman) طاغور (Tagore) ، غندى (Ghandi) ، محمد على ، شوكت على . حبيب اسطيفانو (Habib Estefano) ، ديستوسكى (Doiestowsky) ، رديارد كبلنج (Rudyard Kipling) ، إينشطين (Einstein) : أوكاكرا ـ كاكوزو (Okakura-Kakuzo) لينين (Lénine) ، موسولينى (Mussolini) ، مصطفى كمال ، زغلول باشا ، رضاخان وفى إسبانيا : أرطيكا كاسيط (Ortega Gasset) ، أسورين (Azorin) : ريكاردو ليون (Ricardo Leon) ....

كل المبرزين فى شعبة من شعاب الحياة النظرية أو العملية يحسون هذه المسألة العويصة. تتردد فى أنفسهم الحصرة المغمومة . على أن الأمر خدعة سراب ، تتحقق للرائى عند الاقتراب ، إذ لو كنت باليابان لاعتبرت أمريكا لك شرقا والصين غرباً ، ولو سافرت إلى صحراء إفريقيا لتيممت شرقا ، أو إلى مستعمرة الكاب فى القارة ذاتها لأمسيت بالغرب . لكن ما شأن روسيا ؟ ما شأن العنصر الأسود ؟ ما شأن الاسرائيليين ؟ .

فالأمر كما رأيت اعتبارى كسفسطة حزبى اليمين واليسار أو حكمى الجمهورية والاستبداد . فما يستلفت همتنا إلى تلك القارة الأسيوية العظيمة مع عناصرها ذات العدد القديمة . فأوربا إنما هى تابعة لها وملحقة بها ، أما نحن الناظرون اليوم إلى تأثير الأصل فى الفرع وجذب ذاك لهذا فى حين أخذه لجواهره ومزاياه . فآسيا من جهة تختطف رويداً تلك المزايا لتتقوى بها وتتنور ، ومن جهة أخرى تتكون روح شرقية فى طبقات الأوربيين نشاهد منها افتخار بعض الألمان ببوذيتهم وازدهاء اليابانيين

يروميتهم ... وهاك جل أقسام سفسطائية السياسية فيما يتعلق بالفريقين :

الشرق : محس بمأمورية ينجزها ، الغرب : شاعر بحياة موقوفة على العمل بلا فتور ، الشرق : مطبوع على مذهب المعرفة بالتصور الخيالى ، الغرب : مجبول على مذهب التحقيق الحسى الايجابى . الشرق : عتيق ، يقبل سلطة الآباء الأولين ، الغرب ميكانيكى ، الشرق : خيالى ، الغرب : عملى . شرق : نوم ، غرب : قلق ، شرق : روح أنثوية ، غرب : روح ذكرية ، شرق : « على نمط واحد » ، غرب : تنوع ، الأول : كتلة . الثانى : سلطة ، واحد : مقاومة ، آخر : تجدد ، وهذا ، اعتبارات أولى النظر أما أقوال العامة فهى كثيرة منها : الشرقى : لباسه واسع مذيل . الغربى : ثيابه لاتقة بحيطة بجسمه . الأول : ذو لحية كثة وشعر رأسه ضاف . الثانى : محلوق اللحية قصير شعر الرأس . واحد زوجته طائعة ، آخر قرينته حرة . منية الواحد : شجرة ، عين ماء ، زريبة . بغية الآخر : التنافس الحيوى . الشرق عناصر ملونة . الغرب عنصر واحد أبيض ! كل هذه أغلاط على أغلاط . ومنافاة على منافاة للصواب والعقل ! وما كنت لأزعم أنى جئت بحل نهائى لأصعب مسألة من المسائل الراهنة ، أو أنتصر لأحد الفريقين . لكن أروم إبراز ركن ثالث من طى الخفاء قائماً حقيقة وحياً فعالا فى ميدان الحياة الاجتماعية ، ألا وهو عالم الجنوب المتوقد الزموع ولو تنكروه إنكار اليهود ليسوع ! ....

***

إن العنصرين الأسمر والأسود مضغوطان بين إفريقيا الجنوبية والساحل الجنوبى للبحر المتوسط الأبيض ، ومن الأندلس إلى بحر الجنجس . ويتآلفان من الفرس والساميين والحاميين ، والدب الايبروى واليونان والسودان . خلق مولد من الكلدان والأشوريين وأوسع منهما . غاية ما رقيت اليه الثقافة الصحراوية فاجتمعوا حول العالم السحرى (سبنغلر) شعوباً جنوبية محضة متسلسلة من الاقليم الأندلسى والمغرب الأقصى إلى إيران ، ومتناسلة من رعايا الخلافة العربية ، تخومها أرخبيل الروم إلى مقدونيا وإيطاليا والأندلس إلى بلنسية وطولبدو ، والأفغان إلى شمال الهندستان ، ولهذا الخلق أيضاً منطقة فى إفريقيا السوداء قابلة للتوسع والنمو ، حيث

المسلمون السودانيون وأدنة السيارات الجزائريون والطائفة السنوسية ، والمصريون والحبشة يتقدمون دائماً بمسايرة الثلاثين مليوناً من المسلمين السود و بمساعدة النخوة الهندية والاسلامية فى الأفغان، فدارهم الأبوية ومصدرهم الدولى بجموع الأراضى المعروفة بالأمة المختصة بالبحر المتوسط ، تضم أقطاراً عربية ومستعربة ، أعنى بالأولى العراق ، البحرين ، الحجاز ، نجد ، اليمن ، عسير ، حضرموت ، عدن ، الشرق الأدنى ، الشام بمناطقه السياسية ، مصر ، السودان ، تونس ، ليبية . و بالثانية : ألبانيا واليونان وجزيرة قبرس . ثم إن هناك عصبيات وطنية بدون مقر ثابت ، تتألف من الاسرائيليين والأرمن وقوقازى كرج وزركش .

هذا هو الشرق الأدنى ، مهد كل ثقافة وكل دين ، تطب الانسانية ، معمورة ذات الآلاف من العينين التى يلحقونها بقارة آسيا خطأ و يعدونها كالرجل الهجين شيئا وسطاً . كلا إنها لأرض شريفة تطالب بحق زعامتها على رأس الجنوب وإفريقيا الجنوبية (عدا الكاب) وشمالى غرب الهند وما البارز الحاد من هذه الكتلة إلا الأندلس التى تنجلى فيها خواص الجنوب و مزايا أهله وهيئة حياتهم ، وقوة مدافعتهم للشرقية و الغربية .

والآن يجب على القول بأن هذا الترتيب ليس بالصرف المطلق ، إذ الكلمات الثلاث لا تنبىء عن مجموعة شعوب فحسب ، بل هى عبارات عن قوى روحية سائدة فى أنحاء العالم مع وجود مناطق المزج والتضاد فى شعب أو شعوب ، كما فى الدولة الألمانية التى هى بين الشرق والغرب (سياسياً) ، أو كاسبانيا التى هى بين الغرب والجنوب ، أو كالهند التى بين جنوبها الاسلامى وشرقها البرهمى .

2 — خواص الأقسام الثلاثة — وتمحيص الحقيقة أن الشرقيين(١) يتصورون الكون تصوراً أجوف ، أى ذا قوة متجهة إلى « داخل » فيرونه إلهاً . ومبدأهم يتلخص فى ضمير الغائب ، ضمير المجردات : هو . يخضعون أمام الكائنات ويضعون العيش شيئاً اعتبارياً لا حقيقة له ، شاكين فيه وفى أنفسهم (الأنانية الممقوتة عند البوذ) الطبيعة كعبة عبادتهم أينما وجدوا فيها . فهناك وطن لهم ، يعمل فيهم الماضى

(١) يعنى المؤلف بالشرق هنا الذى لم تتغلغ التعاليم الاسلامية أو الثقافة الاسرائيلية

والفضاء والغريزة . حقيقتهم أن لا يقبلوا حقيقة مطلقاً . فيقولون « كل شيء إله » أو « أنا إله »

ولهذا المذهب مجريان يلتقيان ويتكاملان :

١ . إخاء مع الكون وتفان فى محبته (تأمل أديان وفلسفات الصين واليابان)

٢ ازدراء بكل حياة وبكل طبيعة (نرفانا البوذ وعدمية Nihilisme الروس والتتار) . يقول الرجل الشرقى :

إن خليقتنا إلهية إذ يجتمع فينا الخالق والمخلوق . البسيط والمركب . المبدأ والنتيجة . المعنوى والحسى . الحياة خط دائر مسدود سره سرمد البحار وجزرها دون أن تخرج من مدارها أو تنقص ، ليست غايتنا عن الحقيقة ولا عن الخير . إذ ليس العقل والارادة والوحى الخ . إلا كلمات جوفاء لا طائل تحتها . إن الرجل العارف بأنه جزء من الاله لا يحتاج إلى حقيقة ، لأنها فى نفسه . وما عليه أن يجد ويكد فى اعمال فكرته . وإمعان نظرته ، ليجلب على نفسه بلابل يستوجب مضضها فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه ، أو كالجادع مارن أنفه بكفه . . . ويقول :

كل حي ميت وكل موجود مفقود . كل شيء كالأضغاث يلتف بعضها على بعض . أو يتسرب ليتغلغل فى مهاوى المبهمات . . . إن الحياة عارض غرورى فى سلسلة التكون اللانهائى ، مرحلة من مراحل الاستحالة الحيوية (مذهب التناسخ) تموت لتنفك مركباتنا وتعود إلى بساط . فندخل فى الله الذى هو الدهر أو البعثرة الكونية .

إن الشرقى لا يعرف حدوده . تثب نفسه فى الفضاء لتتفسخ وتتدرج فى الطبيعة . غايته كما رأيت هى الاعتراف بأنه لا توجد حقيقة . وأنه — هو — مجموع مركبات مستحيلات ، لا أحد فيها ، يتصور المادة كتجسم نفوذ غريب غير حائل : يصير التراب نباتاً ، كذلك ، والنبات حيواناً ، والانسان تراباً الخ . . . أنظر رمز التنين الصينى إلى القوى المسببة الولاجة فى الأشياء ، بطرق شتى مناسبة لأغراضها : دون أن تبرز لنا فى أوصافها (اللانهائية) . وهى — أى الحياة — فى نظره عارض ألمى مأسوف على وجوده ، فيدع نفسه تتناءد لكل تيار المعيشة . فلا يبدى إرادة ، ولا يهتم بمعاده .

ثم ينفذ عملياً النظرية الآنفة الذكر بتلقين الوسائل الموصلة إلى إفراغ الأدمغة من كل شيء خارجي (نرفانا) و باعتبار نفسه مساوية مثلا للشجرة أو الكرسي و باعتقاده من جهة أخرى أن العيش ألم والألم يتولد من الطمع : فيميت هذا بقتل الأنانية فيه و مطامحها ، و يطرح عنه ملغياً كل ائتلاف معان وكل انفعال من خير وشر ، أي الأمور التي تتدافع أو تتجاذب كما في حياة الافراد ، لا مقدس و لامدنس في نظره ، لا روحي ولا حسي ، بل كل الكون نفي فارغ . « قل إن حياتنا السرمدية لا تتوقف ولا تتوطد على أعمالنا ولا اجتهادنا ، الامر الذي إن اعتمدنا عليه نظل بعيدين عن إنقاذ أرواحنا » . . « العالم يذهب مع ذهاب روح الانسان . . من عرف نفسه عرف العالم » . . . « إن خير العلم جهل كل علم » . . . « ضع اهتماماتك في ظفر خنصرك » (طولسطوي)

هذا هو الشرق أرض الغريزة والتقليد ، والبعثرة والجماهير ، وعدم الانانية . هذا هو الشرق بقوته الادبية الثلاثية : روسيا — الهند — الصين ، و أعلامها المتآزرين : غندي — ديسطوفسكي . طاغور — طولسطوي . بوذا — لينين ، شرق البوذ الاحمر والصقلبية المضادة للغرب ، ويابانية طاكنوبو - مروبوز Takonubo-Morobuse وأوكاكرا كاكزو Okakura-Kakuzo .

***

أما الغرب ، فتصوره للوجود تصور مقبب — أي قوة حركته متجهة إلى « خارج » — . مذهبه يتلخص في ضمير المتكلم (أنا) فلا تسيطر عليه الطبيعة ولا الحياة إذ يعتبر نفسه سيدهما بمزية التقدم والارتقاء اللانهائي . هو مطلق العنان ، يذهب حيثما شاء ، وكيفما شاء ، واثقاً بعقله وقوة إدراكه ، فكعبته الانانية المطلقة المغرب ، أراض تختار فيها الاوطان ، ويهتم سكانها بالمستقبل والزمان والادراك العقلي (مقابلة الماضي ، والمكان ، والغريزة في الشرق)

إن حقيقة الغرب تنافس دائم بين ما يعتقد فعله وما يفعل حقيقة ، ثم شوق مضطرب إلى الوصول الى ما وراء الكون ، ثم ثقافة حائدة عن الاهتمام بالحياة غير إنها لا تكون مفازتها ، ثقافة منتقلة حيث يغلب التصور الذهني غير مقيد

والذى لا غاية بعده . أعني أن الغربى يجد الحقيقة لنفسها لغرض عملى أو كسبى . شعاره . « انحلال العلم فى منتظم تناسبات نوعية كنغمة موسيقية لا نهائية للفضاء الفلكى ، كل نشوء يقاس على قدر القوة المحدثة له بكمية من العمل المحقق من حيث هو نفوذ مخزون » . . . هذا تحديد العلامة سبنغلر (Spengler) فى حق الروح الفوستية فنطلقه هنا على الثقافة الغربية . « إن كمية مفروضة من قوة نفوذية هى ناموس انتشارى مفعول ومستقل عن كل حاسة اللمس أو البصر . ولا معنى فيه للصورة أو للهيئة » .

يرى فى الروح الغربية اهتمامان رئيسيان : ١ — استعداد لطالب فى حرص ابتغاء نيل إدارة وقوة . توق الى التفوق والتحول ، ومطابقة الجديد المستحدث يخيل اليهم أن غايتهم تباعدت كلما اقتربوا منها . يطلبون الزيادة ويحتقرونها اذا أدركوها . ربهم علم الجبر . لا تنافس ومناظرة فى مسألتى العقل والارادة . استثار بالفهم والشهامة والنشاط . طرد كل بسيط وكل لائق لأول وهلة ، غاية فى العمل . غاية فى الطموح غاية فى حب القوة والسيطرة .

واذا سمعتهم يتحدثون عن عظيم من عظمائهم تلقيت هذه الكلمة : « قد تفوق » لا يحس و يطرب الغربى إلا للفضاء ولمضى الرجل فى اللانهاية إما بسلاح العقل و إما بدرع الخيال . إن روح (Faust) سائدة فى الدول الغربية بتثقيفها للضمير الخلقى و بنظرها فى الماضى و تحليقها فى الفضاء ، ليبث قوته المطلقة » .

هذا هو الغرب بشعوره لأغلاطه ونقائصه مع اعتقاده الصميم أن لا حد لقدرة الانسان وعقله .

يشتمل الغرب جغرافياً و تاريخياً على إيطاليا (روما أم الغرب) وفرنسا وألمانيا (الموجسة خيفة من آسيا القريبة منها) والنمسا والمجر والنرويج والعالم الأنجلوسكونى والعالم الأسيرى الأميركى ، وسويسرا وبلجيكا وهولاندا والبلقان . تخومه ومناقذه مقاطعتا كطالونيا وجليقة باسبانيا ، وأميركا الفتاة .

أما الجنوب . فشكل تصوره للحياة منبسط — أى اتجاه قوة حركته مستدير ، أو إهليلجي — مبدأه يتلخص فى ضمير المخاطب (أنت) تغلب عليه الفكرة

التجريدية الدينية . و الميل الى المؤاخاة على النمط الاعتقادى ، فروحه مباينة لميكانيكية الغرب الممقوتة وبداوة الشرق الذليلة . آتية فرودية : تصوره للعيش فتان ، الحياة سلسلة مراتب مودع فى كل منها روح تقوم بواجبها ليعد هذا جزءاً مقضياً ومنجزاً من مأمورية عظيمة دائرة .

الجنوب أراض حيث الوطن يتصور ويبنى ، وحيث أهمية (اليوم) غير محدودة ، و الأمس نسبة اليه طاعن فى القدم وسابق للازمنة التاريخية ، وحيث المستقبل مستمر لزمان الحال الى الأمام ، وحيث النشاط له قيمة ، و الادراك البديهى سيادة .

وهنا تسنح لى النبذة لأفى بعجز كل متصد لهذا العمل عن الاتيان برمة حقيقة الجنوب فى نهارها الجلى بين الفكرات المبددة أثناء هذا الكتاب العديم النظير اللائق التصانيف الاجتماعية الضافية ، إذ لا غرو أن عملا كابراز حقيقة اجتماعية عظيمة يستغرق عمر الانسان ، فتجليتها و إماطة الستار عنها ، يجعلنى اذاً مضحياً عملى فى سبيلها طيلة حياتى ، والآن أكتفى بأن أقول إن الجنوب يروم تحقيق المثل الآرى ، يعمل أبى فأنسج على منواله ، فهو مباين للشرق والغرب باعتقاده أن الله ليس بقوة النواميس (١) الطبيعية ولا هو بالفضاء اللانهائى . و إنما هو رب العالمين المهيمن الذى يصرف عباده باهتمامه الى مقاومة القوى الهيولية وتأثيرها فيهم بافسادها مواهبهم الشريفة السامية . ومن خواص خليقة الرجل الجنوبى أنه لا يملك نفسه إلا حيناً وأحياناً ، تملكه فطرة حركاته ، وأنه يعلى قيمة السطحيات لمقاومة نفوذ المادة . و يتأتى لنا كشف سره بتحليل اشاراته و إيمائه و وقفته وطبعه . وقبل أن ألتفت اليه ألتزم بأن أقول — بكل صراحة — : لا شرق و لا غرب . فما النور الآتى من الشرق إلا ذاك الذى ينسحب ويتقلص عن أوربا مجتازاً بأميركا ومعيداً دورته ، لتتقفل السنة والسنون . . أما اذا أردنا ذاك الشرق البعيد ، الشرق الذهبى الموصوف فى أقاصيصنا القومية ، فلنطلبه ببوصلة كركطو Cocteau الذى يقترح علينا الفحص عن اللؤلؤة الشرقية فى لونها وهيئتها الخ . و إلا فما الشرق سوى هوس فى قلوبنا يجعلنا نصبو دائماً إلى الأشياء الغريبة السحرية .

والكلام بقية .

---

١ — أى الله تعالى